بحث عام | قسم الدراسات الدينية | 11 مايو 2017

صناعة السَّرد
أصحاب الرَّسّ من الآية إلى القصَّة

عبد الباسط مرداس
باحث مغربي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017
All rights reserved © 2017

ملخَّص البحث:

حافظت معظم الأجناس الكتابيَّة الإسلاميَّة القديمة، من تفسير وتواريخ وكتب وعظ، وخصوصاً مؤلّفات قصص الأنبياء، ككتابة لها خصوصيتها وطبيعة خطابها، على نسب معيَّنة مقنّنة ومنظّمة لسرد له جذور طاعنة في خطابات دينيَّة وتاريخيَّة وأسطوريَّة. يحاول هذا البحث مقاربة هذا الخطاب السردي انطلاقاً من قصة أصحاب الرَّسّ التي تعتبر من القصص «المبهمة» في النصّ القرآني، وقد تتبَّعنا طيلة هذا البحث كيف تعرَّض القرآن الكريم لهذه القصَّة في حدود ما وسمناه بآيتي أصحاب الرَّس، في سورة قاف وسورة الفرقان، وذلك داخل بنية سرديَّة قرآنيَّة لها منهجها ومقصدها الأسنى، إلى قصة أضحت متنوّعة المداخل ملأى بالتفاصيل السرديَّة والأخبار ومذكورة في بطون مصادر السرد الدّيني القديمة. فمن آيتين في القرآن إلى أخبار مختلفة المشارب تأسَّست القصَّة الدينيَّة في الخطاب السردي الوسيط منظّمة من شخوص وزمان ومكان وعناصر متلوّنة، غايتها الأولى خدمة الدّين الجديد (الإسلام)، وقاسمها المشترك هو الدرس الديني والاعتبار. فالقصَّة التي تتطرَّق لها هذه الدراسة تطرح مجموعة من الأسئلة المتعلّقة بطبيعة العناصر والأخبار التي لعبت في تطويرها من النواة السرديَّة الأولى (الآية)، الخالية من كلّ غرابة وتخييل، إلى خطاب قصصي متحرّر وليد صناعة سرديَّة ساهم في تصنيفها ونظم خيوطها رواة قدامى في عصور وأزمنة غابرة. فكيف تكوَّنت قصَّة أصحاب الرَّس؟ وما هي الوحدات السرديَّة التي ساهمت في تأليفها؟ وكيف ساهم الرواة القدامى في تصنيفها ونظم خيوطها؟

فمن ناحية حاولنا مقاربة تركيبة هذه القصَّة والغوص في وحداتها السرديَّة المختزلة في رواية أبي إسحاق الثعلبي في كتابه: «عرائس المجالس في قصص الأنبياء» (العرائس)، حيث أخرج هذا الراوي المنظّم لسرديات قصص الأنبياء (الثعلبي) نسيجاً سردياً «حاول» الإجابة عن كلّ التساؤلات التي تستوقف المتلّقي لهذا النوع من القصص، ومن ناحية أخرى تطرَّقنا لبنية خطاب الرواة القدامى والقاصّ الشعبي واستراتيجيتهم في صناعة فسيفساء سرديَّة دينيَّة مكوَّنة من عناصر تبدو متباينة وأحياناً متنافرة، وبالتالي لاحظنا استغلالهم في تكوينها أضعف التلميحات والمفردات القرآنيَّة ليقدّموا لنا «قصة مفبركة» حافظت لنا ذاكرة الأخبار الإسلاميَّة القديمة على بعض ملامحها، في حين، وهذه فرضيتنا، ضاعت أو تشابكت بنيتها (أو بنياتها) السرديَّة الأولى. قصَّة أو لوحات متعدّدة لقصَّة عرفت تحوُّلات وتغيُّرات وروايات أضحت مكوّناً من مكوّنات الخطاب الأسطوري المتأثّر بعامل الرواية المترامية الأطراف.

هذا هو الموضوع الأساس الذي يروم هذا البحث التطرُّق إليه محاولاً إظهار استراتيجيَّة «صناعة السرد الديني» من خلال هذه القصَّة، وكما سيعاينه القارئ الكريم فحصَّة الأسئلة والتساؤل تفوق الأجوبة، فالقصَّة متنوّعة المداخل وغامضة التكوين.

مقدّمة

إنَّ المتتبّع للغرض السردي الموسوم بـ«قصص الأنبياء» داخل النصوص الحافَّة للقرآن، من تفسير وتواريخ وكتب الوعظ، وخصوصاً مؤلّفات قصص الأنبياء، يظهر له مدى تطوُّر هذا السرد وابتعاده عن المصدر «الأم» (نعني القرآن بالنسبة إلى المسلمين). فقد حافظت لنا معظم الأجناس الكتابيَّة الإسلاميَّة القديمة، ككتابة «تاريخيَّة» لها خصوصيتها وطبيعة خطابها، بنسب معيَّنة ومقنَّنة ومنظَّمة لسرد ديني له جذور عميقة في خطابات دينيَّة وتاريخيَّة وأسطوريَّة. سرد ظهر في منطقة الشرق الأدنى، منطقة الحضارات والديانات الكبرى وعبور القصص والأساطير، وسافر وتطوَّر عبر أفواه كثيرة وروايات متشعّبة المداخل جعلته يصبح سرداً مشتركاً حاضراً في النصوص الدينيَّة التوحيديَّة الكبرى (التوراة والقرآن). بحيث نصادف وحدات ومقطوعات سرديَّة مكرَّرة في بطون المصادر الإسلاميَّة، تكرّرها الأخبار المتنوّعة كشهادة (أو إن شئنا شهادات) واضحة على صناعة سرديَّة دينيَّة تحمل في ذاكرتها صور أخبار تبلورت (لكي لا نقول تأسَّست) مع بدايات الإسلام في ظروف وسياقات لم يتكلّم عنها المؤلفون المسلمون القدامى إلا نادراً. أخبار تراكمت منذ قرون عديدة، تختلف في الطول والقصر وفي التنوُّع والتنافر وتدخل فيما وسمناه في عنوان هذا البحث بـ«صناعة السرد الديني»، وذلك كما سنعاينه من خلال القصَّة التي سندرسها. أخبار لا نجهل فقط بداياتها وتطوُّرها، ولكن كذلك لا نعرف بصورة تامَّة متى استقرَّت في صيغها السرديَّة التي وصلتنا فيها، وكيف ضمَّتها الأشكال الكتابيَّة التي راهنت عليها؟ ويتساءل الباحث كيف ساهمت هذه القصص وهذا المتخيَّل الديني الغنيّ والمتنوّع، وذلك منذ «بدايات الإسلام» أو «لحظة الإسلام المبكّر»، في بناء وتعميق تصوُّر دينيّ مطبوع بطابع الدين الجديد: الإسلام؟

وتبقى، بالنسبة إلينا، هذه الأخبار المنتشرة في بطون المصادر التراثيَّة ملاذنا الوحيد.[1] فلا بدَّ من إعادة قراءتها واستخراجها ومقارنتها ووضعها رهن النقد والمقاربة الأدبيَّة. فإذا فقدنا بداياتها الشفويَّة، فأشكالها وصيغها الكتابية يمكنها أن تساعدنا، إلى حدٍّ ما، في فهم جوانب من هذا السرد الدّيني القديم واستراتيجيَّة بنائه وسبر تصوُّراته.

إنَّ الباحث والمتأمّل في القصصي الديني الإسلامي تسترعي انتباهه بعض القصص طارحة عليه أسئلة شتَّى. وفي هذا السياق تعتبر قصَّة أصحاب الرَّسّ، وليست وحدها[2]، من القصص «المبهمة» لكي لا نقول «الغامضة التكوين». ولمقاربة هذه القصَّة في سياقها السردي القرآني وخارجه ما فتئت مجموعة من الأسئلة

1 للأمانة الفكريَّة لا بدَّ من القول إنَّ ولوج واقتحام هذا النوع من البحث هو مغامرة، لأنَّه يحتاج إلى فريق من الباحثين متعدّد التخصُّصات، لأنَّ هذا السرد له علاقة بتاريخ الأديان والمتون الدينيَّة القديمة والأساطير والسرد القديم والتاريخ وألوان التفسير والأنثروبولوجيا الدينيَّة، وذلك لكي تكمل الرؤية ويتضّح طريق البحث لمعاينة نشأة هذا السرد الدينيّ وتحوُّلاته وأسفاره داخل بنيات الوحدات الإخباريَّة التي وصلتنا.

2 كما هو الحال في قصَّة أصحاب الجنَّة، وأصحاب الحجر وأصحاب الأيكة وقصَّة ذو الكفل... إلخ، التي سنتطرَّق لها في دراسات مستقبليَّة.

تُراودنا، أسئلة متعلّقة بطبيعة العناصر والأخبار التي لعبت في تطويرها من النواة السرديَّة الأولى (الآية)، الخالية من كلّ غرابة وتخييل، إلى خطاب سردي متحرّر مبني على تفاصيل المكان والزمان والشخوص. فكيف تكوَّنت قصَّة أصحاب الرَّس؟ وما هي الوحدات السرديَّة التي ساهمت في تأليفها؟ وكيف ساهم الرواة القدامى في تصنيفها ونظم خيوطها؟

فمن ناحية سنحاول مقاربة تركيبة هذه القصَّة والغوص في متاهات وحداتها السرديَّة المختزلة في بعض الكتابات، ومن ناحية أخرى سنحاول تحليل بنية خطاب الرواة القدامى واستراتيجيتهم في صناعة سرد ديني مكوَّن من عناصر تبدو مختلفة ومتباينة وأحياناً متنافرة، استغلّوا في وصفها وتركيبها أضعف التلميحات والمفردات القرآنيَّة ليكوّنوا لنا «قصَّة» حفظت لنا ذاكرة المصادر الإسلاميَّة القديمة بعض ملامحها، في حين، وهذه فرضيتنا، ضاعت أو تشابكت بنيتها السرديَّة الأولى.

ولتتبّع حلقات قصَّتنا سيرتكز بحثنا على رواية أبي إسحاق الثعلبي في «عرائس المجالس»[3] التي نعتبرها محطّة مهمَّة من محطّات تنظيم خطاب قصص الأنبياء التي لا بدَّ من الوقوف عليها والغوص في تفاصيلها وتكويناتها. محطّة، وإن كانت بنت القرن الخامس الهجري، فهي تحمل آثار القرون الماضية وبدايات التدوين. وقد سبقتها، بدون شكّ، محطّات أخرى.[4] فكتاب «عرائس المجالس في قصص الأنبياء» (العرائس)، هو شاهد على تنوُّع قصَّتنا وتواتر أشكالها السرديَّة المختلفة.[5] فقد نظّم هذا الراوي المفسّر[6] جلَّ الأخبار القديمة التي ذكرها الرواة والإخباريون قبله. نظّمها -حسب منطق وصناعة سرده- في مجلسه (رقم 15) المُعنون: «ذكر مجلس قصَّة أصحاب الرَّس».[7]

---

3 ذكرت روايات قصَّة الرَّس متفرّقة في كتب قصص الأنبياء والتفاسير، وتختلف هذه الروايات من راو إلى آخر. وقد ذكرت القصة كتب قصص الأنبياء: الراوندي (قطب الدين)، كتاب قصص الأنبياء، مشهد، مجمع البحوث الإسلاميَّة، 1409هـ، وابن كثير، قصص الأنبياء، تحقيق عبد الحي الفرماوي، القاهرة، دار الطباعة والنشر الإسلامي، 1997 ونعمة الله الجزائري، النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين، بيروت، مؤسَّسة الأعلمي للمطبوعات، 2002. ونلاحظ، فيما يتعلّق بكتب قصص الأنبياء، اختفاء قصَّة الرَّس في قصص الأنبياء للكسائي. وهذا الظهور والاختفاء هو ظاهرة من ظواهر قصص الأنبياء القديمة التي يصعب تعليلها وتفسيرها. ولتتبّع ما قالته التفاسير القديمة (والكثيرة)، والتي غالباً ما تعيد الأخبار نفسها، انظر موقع تفاسير القرآن على الرابط التالي، أكثر من 70 تفسيراً مذكوراً:

وبعض مقاطع قصَّتنا نجدها في كتب التواريخ القديمة.http://www.altafsir.com/indexArabic.asp

4 مع الأسف البحث في هذا الخطاب السردي الديني في العالم العربي، باستثناء بعض المحاولات الجادّة والدراسات الجامعيَّة، ما زال سجين المقاربة الدينيَّة والوعظيَّة الصرفة والجاهّة أحياناً، والتي لا تسمن ولا تغني البحث. إضافة إلى نوع من البحوث التي يبدأ أصحابها بنوع من الجدَّة في البحث، لكن سرعان ما يقعون في خطاب الوعظ وأحياناً الأيديولوجيَّة.

5 عرائس المجالس في قصص الأنبياء، طبعة بيروت، دار الثقافة، بدون تاريخ.

6 للتعرُّف على الثعلبي وكتابه: انظر المقالات التي خصَّصناها له: "سرديات قصص الأنبياء، الراوي والخطاب والرواية المنظمة"، و"المتخيَّل الطليق في كتاب عرائس المجالس"، في موقع أنفاس. نت، سنة 2007 وسنة 2009 ومقال "رحلة مع كتاب "عرائس المجالس في قصص الأنبياء"، في موقع الأوان، سنة 2013، والبحث "مغامرة السرد الديني: حكاية بلوقيا نموذجاً"، على موقع مؤسسة مؤمنون بلا حدود، أكتوبر 2016

7 العرائس، من ص 131 إلى ص 135 بيروت، دار الثقافة، بدون تاريخ. وللتذكير فكتاب العرائس يتكوَّن من 32 مجلساً تتبّع قصصاً تبدأ من خلق العالم إلى فترة ما قبل الإسلام، عدد كبير وكمّ هائل من الأخبار.

1- في البدء كانت الآية

قبل أن نتوغّل في السياق القرآني لآيتي الرَّس، هناك بعض الملاحظات التي تفرض نفسها نصيغها على شكل أسئلة: أولاً كيف فهم المسلمون الأوائل قصَّة الرَّس؟ وهل كانوا على وعي بها وبتفاصيلها؟ ثانياً هل كانوا فقط يقفون إزاءها عند حدود الاعتبار ولا يصبون كغيرهم من المتأخّرين إلى المعرفة والتخييل؟ بطريقة أخرى هل كانت هذه القصَّة رائجة في أوساط الصحابة زمن نبيّ الإسلام أم كانوا يجهلونها؟ سترافقنا هذه الأسئلة في تجوالنا في متاهات هذه القصَّة.

فبداية لا يمكن أن نغفل في تحليلنا هذا أنَّ الإشارة إلى قصَّة الرَّس هي وليدة النصّ القرآني الذي كما نعلم له برنامجه وروابطه العقديَّة. فكلُّ اقتباسات هذا السرد الدّيني القرآني، رغم محاكاته وتفاعلاته في إنتاج سرد له طابعه وعلاقاته التناصيَّة، قامت داخل هذا السياق الدّيني وإثباتاً لفكرة النبوَّة المحمديَّة ونقداً لمسألة تكذيب الأنبياء ومحاربة الشرك والمشركين. فهذه المرجعيَّة الكبرى، التي سنتكلّم عنها، لا بدَّ من استحضارها لفهم آيتي الرَّس. فالخطاب هو خطاب ديني بامتياز، ولا بدَّ من أخذ هذا المدخل بعين الاعتبار.

افتتح الثعلبي[8] مجلس قصَّة أصحاب الرَّس بذكر الآية 38 من سورة الفرقان، وذلك كمُستهَّل لحكايته. ويلتقي قارئ القرآن بالمركّب الإضافي «أصحاب الرَّس» في سورتين مكّيتين: سورة الفرقان وسورة قاف، وذلك على الشكل التالي:

«وعاداً وثمود وأصحاب الرَّس وقروناً بين ذلك كثيراً، وكلًّا ضربنا له الأمثال وكلًّا تبَّرنا تتبيراً»[9]، والآية: «كذّبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرَّس وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تُبَّع كلّ كذّب الرسل فحقَّ وعيد».[10] وكما نعرف فقد استعمل القرآن في مجموعة من السور كلمة «أصحاب»[11] نعتاً لأقوام عدَّة، على غرار «أصحاب الأيكة» و«أصحاب الحجر» و«أصحاب الأخدود» و«أصحاب الكهف»، ... إلخ. أمَّا عبارة «أصحاب الرَّسّ» فقد ذُكرت فقط مرَّتين في السورتين السالفتين. ويمكن تلخيص سياق آية الفرقان المكّيّة التنزيل كما يلي: قوم من الأمم الغابرة جاءهم من عند الله رسول على شاكلة الرسل والأمم السالفة، فكذَّبوه فأصابهم عذاب الله. هذا هو مجمل ومقرَّر هذه الآية، والمختزل في المحاور الأساسيَّة التي تدور في دائرتها سورة الفرقان بكاملها والتي تركّز، وكما أشرنا إليه، على التأكيد على التكذيب الذي

8 مجمل حكاية أصحاب الرَّس نجده في تفسير "الكشف والبيان"، عندما تطرَّق الثعلبي لتفسير آية الفرقان (رقم 38).

9 الفرقان، 38-39

10 قاف، 13-14

11 يستعمل القرآن كذلك كلمة "قوم" و"إخوان" وصفاً لبعض القصص.

لقيه الأنبياء السالفون وتحذير (بطريقة غير مباشرة) أمَّة النبيّ محمَّد من سوء عاقبة التكذيب، وتثبيته ومواساته في تبليغ رسالته.

وداخل البناء المعنوي والدّيني نفسه تتمركز كذلك سورة قاف التي تذكّر كفار مكَّة بمن سبقهم من المكذّبين وتواسي النبيّ، إضافة إلى التذكير بالهلاك ورسم صور من مشاهد القيامة من موت وبعث وحشر. وتُعدّد هذه السورة كذلك ـ كسابقتها ـ سياقاً غابراً في زمن سحيق ورموزاً تكذيبيَّة على شاكلة عاد فرعون وإخوان لوط وقبائل وأقوام بائدة ذكرهم القرآن ضارباً بهم الأمثال للآخرين، كما تقول الآية: «وكلًّا ضربنا له الأمثال».[12]

ويظهر من هذا المنطلق أنَّ قصة الرَّسّ رُويت كحلقة سرديَّة غير مفصَّلة وغير منعزلة عن سلسلة من النماذج السلبيَّة التكذيبيَّة، كما تنصُّ عليه الآيتان: «كذّبت قبلهم قوم نوح»، و«كلّ كذّب الرسل فحقَّ وعيد». فنحن أمام خطاب موجَّه إلى نبيّ الإسلام وأصحابه الأوائل كي يعتبروا بهذه السلسلة الطويلة من التكذيب.

فإجمالاً هذا كلُّ ما تعلن عنه أخبار أصحاب الرَّسّ في القرآن، أو بالأحرى ما نطقت به الآيتان. ويظهر جليًّا للقارئ خلوُّهما من كلّ تفصيل وتشكيل سردي، وتركيزهما فقط على رؤية قرآنيَّة في السرد، وهي مخاطبة النبيّ محمَّد وتصوير مسألة التكذيب والإيمان والهلاك. فلا شيء يمتُّ إلى العناصر التخييليَّة والتصوير السردي الحرّ.[13] ويبدو أنَّ الثعلبي، الذي نعتبره، إلى حدٍّ ما، الراوي المنظّم للقصَّة، أخذ على عاتقه مشروعاً يتوخَّى التعريف السردي بقصَّتنا، حيث قدَّم لنا من خلال مجلسه سرداً منبثقاً من الآية من جهة ومتحرّراً منها من جهة أخرى. سرد مفتوح على أخبار عديدة وجدنا بعضها في المصادر السرديَّة السابقة، في حين لم نستطع الوصول إلى جذور الأخبار الأخرى كما سنذكره لاحقاً. ومن ثمَّ أصبح الخطاب السردي الحاف لآيتي الرَّس عبارة عن «عتبات نصيَّة»، موازية ساهمت بطريقتها في بناء تخييل دينيّ أنتجه وحوَّره وربَّما ابتكر مقاطعه في حلّة جديدة وقالب سردي، قبل الثعلبي، رواة وقصَّاص ووعَّاظ قدامى. فالعلاقة بين قصَّتنا والآية القرآنيَّة، وكما سنعاينه، هي علاقة توليديَّة وتناصيَّة، وبالتالي فقد وظّف الراوي الآية واستقطبها وجعلها تحتضن السَّرد وعليها يتّكئ الخبر.

12 سورة الفرقان، آية 38

13 الملاحظ أنَّ مقال فينسينك "أصحاب الرس" في دائرة المعارف الإسلاميَّة بالفرنسيَّة، والذي لا يفوق بضعة أسطر، يذكر فقط بعض الأمور البسيطة المتعلّقة بوصف قصتنا، وهذه الملاحظة يمكن إجراؤها على بعض المقالات الأخرى المتعلقة بكلمات مفتاحيَّة أخرى لها علاقة بقصص الأنبياء. وهنا يمكن الإشارة إلى أنَّنا لم نستطع الحصول على مقال:

Amoretti, S., « On the *Ashâb ar –Rass* », *in* RSO, vol.43 (1968), pp.27-52, cité par H.Schwarzbaum, Biblical and Extra-Biblical Legends *in* Islamic Folk-Litertaure, 1982, in bibiographie.

أمَّا الباحث في محرّكات البحث على الإنترنيت فلا يقع تحت عبارة "أصحاب الرَّس" سوى على بعض الأسطر والأقوال التي تعيد سرد بعض أخبار الحكاية وتعيد نشرها في منتديات ومواقع دينيَّة وذلك بدون نقد وتحليل. إضافة إلى هذا نصادف بعض الأفلام القصيرة بالعربيَّة على شكل كرتون ورسوم متحركة موجَّهة للأطفال. انظر الرابط.

http://www.youtube.com/watch?v=VfNvHz-RVBQ

فما هي إذن طبيعة الخطاب الذي أفرزته آيتا الرَّس؟ وما هي معالمه وعناصره المؤسّسة؟

2- في متاهة الخبر

ليس لدينا ما نطمئنّ إليه من إشارات واضحة حول بدايات قصَّة الرَّس، خصوصاً أنَّ الاهتمام بتاريخ تدوين هذا النوع من القصص لم يعرف العناية الكافية والدراسات الشاملة لا قديماً ولا حديثاً، وكان ينظر إليه بنوع من الاستخفاف ويبرمج غالباً وما زال في خانة ما سُمّي بـ«الإسرائيليات»، إضافة إلى طبيعة هذا السرد المتلوّنة. فليس هناك تواتر في الرواية وإنَّما هناك، كما سنعاينه، صيغ سرديَّة وروائيَّة متنوّعة وليدة مرويَّات ومتفرّقات ووحدات متداولة ناتجة، بدون شك، عن بنيتها التي تمزج بين ما هو ديني وأسطوري وما هو تاريخي.

قديماً وُصف الثعلبي بـ«حاطب ليل»[14] يروي الغثَّ والسمين والعليل والصحيح من الروايات في تفسيره «الكشف والبيان»، كما انتُقد كذلك سرده في كتابه «العرائس» وطريقته في حكي قصص الأنبياء.[15] وما فتئ القدماء وكذلك حال بعض المحدثين ينتقدونه من زاوية علم الحديث وعلم التفسير، وهذا ما يمكن أن نتفهَّمه ونجد له تعليلاً، لأنَّ التفسير علم جادّ يتطرَّق لكلام الله، أمَّا القصص والخطاب الوعظي عموماً فجمهوره «عامَّة الناس». وكما نعلم فقد دُوّن التفسير في كتب خاصَّة به مرتَّبة حسب ترتيب القرآن، حيث كان للقصَّة الدينيَّة حظّها في صياغة خطاب التفسير. لكنَّ بعض المفسرين القدامى، وكذلك حال بعض المتأخّرين، كان لهم موقف ممَّا أضحى يُسمَّى في الخطاب السردي الديني الإسلامي بـ«الإسرائيليَّات» أو «الموضوعات». وهي روايات كما نعلم يتوجَّس منها المحدّث، وإن كان بعض المفسرين الأوائل كالطبري وبعده الثعلبي وآخرون رووا قسطاً كبيراً منها في تفاسيرهم.[16] أمَّا الناقد بصفة عامَّة فله رؤى أخرى وقراءات مختلفة للأخبار، سواء أكانت هذه الأخبار أحاديث ضعيفة، أو ما يُعرف «بالإسرائيليَّات».

فإذا اعتبرنا أنَّ «الخبر هو أصغر وحدة حكائيَّة»، فقصَّة الثعلبي مكوَّنة من أخبار مختلفة المبنى والمعنى. قصَّة صُنعت، كما يبدو، من خلال تراكم[17] مجموعة من الأخبار المتَّصلة بموضوعها وعناصرها المذكورة في القرآن وخارجه. وينطبق على مجلس الثعلبي القضايا الثلاث الكبرى التي تدور رحاها حول

14 يقول ابن تيمية: "والثعلبي هو في نفسه كان فيه خير ودين، وكان حاطب ليل، ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع". انظر: مقدّمة أصول التفسير، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1980، ص 31

15 انظر مقالنا: "الراوي المنظّم"، السابق الذكر.

16 غالباً ما تُنتقد الإسرائيليات بدعوى أنَّها أخبار دخيلة بدون الاهتمام بها والتدقيق فيها، والتساؤل لماذا أدرجها المفسرون والإخباريون في بطون كتاباتهم؟

17 يسمّيه سعيد يقطين: "مبدأ التراكم". انظر كتاب الكلام والخبر، مقدّمة في السرد العربي، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي 1997، ص 195

أصول الخبر وهي: «قضيَّة الأصول، وقضيَّة المشافهة والتدوين، وقضيَّة دور المؤلّف».[18] وهي كما نعلم قضايا متشابكة ومتضافرة لفهم تعامل راوينا مع الأخبار والقصص الدينيَّة التي شاعت قبله.

فإذا انطلقنا من مقدّمة كتاب «العرائس» نلاحظ أنَّ الثعلبي يقدّم نفسه لقارئه فقط كـ«شارح» لقصص الأنبياء المذكورة في القرآن[19]، ولا ينبس بأيَّة كلمة عن نظمه وصوغه واختياره وتصنيفه لكميَّة من الأخبار التي كوَّنت متن قصصه. وخير دليل، كما سنرى من خلال سياق قصتنا، غياب «خبر العبد الأسود» في العرائس، وهو من الأخبار الملتصقة بأصحاب الرَّس والمذكورة في مصادر أخرى.[20] فراوينا كما نستشفُّ من قراءة ترجمة حياته عاشر كثيراً الكتب ودرس على عدد كبير من الشيوخ ومارس التفسير والوعظ واهتمَّ بعالم السرد الدّيني. فقصَّته تمزج بين القراءة من جهة والسماع من جهة أخرى. فوظيفته في قصص الأنبياء، كما يوهمنا، تتحدَّد فقط في «التحمُّل والانتقاء والأداء، وإن كان حظّ القراءة كبير».[21] فهو قد انتقى لنا أخباراً سمعها وقرأها وتحمَّلها حول أصحاب الرَّس وصاغها في إطار مجلسه السردي. فالثعلبي لم يكتف بالنسخ وإنَّما، وكما عايناه، أعاد أحياناً إنتاج القصَّة بواسطة تركيب جديد للوحدات الإخباريَّة، ومارس حريَّته كراوٍ منظّم وجامع لروايات شفاهيَّة وكتابيَّة عتيقة أصبحت ملكاً ورصيداً ينهل منه الجميع.[22]

فهذا النوع القصصي نابع من الخطاب القرآني، ومنه تفرَّعت مادَّته الإخباريّةَ المكوَّنة من أقوال وأحاديث «العلماء» و«أهل التفسير» و«أصحاب الأقاصيص»[23]، ولائحة من الرواة التي ساعدت الثعلبي في نظم ونسج متن قصَّة نابعة من صيغة القول والكلام وجنس الخبر مسندة على الصيغ الأدائيَّة كـ«حدَّثنا» و«أخبرنا»، ونضيف بالنسبة إلى راوينا «قرأنا» و«سمعنا».

فالثعلبي إجمالاً يصنّف، في «العرائس» بصفة عامَّة، وفي مجلس قصَّة أصحاب الرَّسّ بصفة خاصَّة، أقوال الرواة القدامى، وينظّم كلام غيره وينقله ويرتّبه في مجلس «جامع»، تتداخل فيه الأنواع والأجناس من حديث وتفسير وأخبار ووعظ ومقاطع وتفسيرات لغويَّة.

18 محمَّد القاضي، الخبر في الأدب العربي، دراسة في السرديَّة العربيَّة، دار الغرب الإسلامي 1998 ص 212

19 يقول الثعلبي: "وهذا كتاب يشتمل على قصص الأنبياء المذكورة في القرآن بالشرح والله المستعان وعليه التكلان"، انظر خطبة كتاب "العرائس".

20 سنتطرَّق لهذا الخبر لاحقاً.

21 محمَّد القاضي، المرجع السابق، ص 192

22 جلُّ الأخبار الدينيَّة المنبثّة في كتب ومصادر التراث القديمة كانت في الأصل روايات دائرة على الألسن قبل أن تستقرّ في التدوين في الصحف والكتب كآخر حلقة من حلقات الرواية. وقد لعبت مجالس الثعلبي دورها في هذا التثبيت والتقييد. وقد تعامل راوينا مع هذا الرصيد من الأقوال والأخبار التي تداولتها القرون الهجريَّة الأربعة الأولى.

23 بدون شكّ لعب القصاص دوراً أساسياً في بدايات الإسلام، ومارسوا الحكي والقص والوعظ والإرشاد وأعطوا للخطاب الديني الإسلامي الناشئ أرضيَّة سرديَّة خصبة.

3- الخبر بين توحُّد الفكرة وتنوُّع السرد

قلنا إنَّ القصَّة الثعلبيَّة تتكوَّن من مواد إخباريَّة مختلفة ومتنوّعة السَّرد والتكوين وطبيعة العناصر وأسماء الرواة. ففي قصَّتنا نلتقي بأسماء كلٍّ من سعيد بن جُبير والكلبي والخليل بن أحمد ورواية علي بن الحسين بن زين العابدين الذي يروي عن أبيه وعن جدّه علي بن أبي طالب.[24] ونتساءل هل هؤلاء الرواة وآخرون هم الخالقون الفعليُّون لأشكال الخبر السردي، أم يلعبون فقط دور الوسيط المبلّغ لمادة حكائيَّة سرديَّة رائجة؟

أدرج الثعلبي قصَّته بعد قصَّة عاد (المجلس 14) وقبل قصَّة أيوب (مجلس 16). وكما هو معلوم لدى قارئ قصص الأنبياء أنَّه ليست هناك أيَّة علاقة بين أصحاب الرَّس وقصَّة أيوب، في حين -إذا تتبَّعنا منطق بعض الإشارات السرديَّة التي ذكرها الراوي - هناك شبه قرابة «موضوعاتيَّة» بين قصة الرَّس وقصة عاد، حيث يعتبر الثعلبي أنَّ أصحاب الرَّس «بقيّة» من بقايا قوم عاد، معتمداً في ذلك على أقوال وفرضيَّات بعض الرواة القدامى.

ومنذ القراءة الأولى يظهر مجلس قصَّة أصحاب الرَّس عبارة عن روايات متعدّدة لقصَّة لها أنماط سرديَّة مختلفة، وليدة إنتاجات مغايرة وطاعنة في الزمن، وتختصر مهمَّة الثعلبي في نقله الفعلي لهذه المادَّة السرديَّة ومحاولة توصيلها للقرَّاء.

فهذه الروايات نتجت في أوساط القصَّاص والإخباريين والمفسّرين الأوائل في ظروف نجهلها كليَّاً، وما وصلنا من روايات مختلفة الحجم والكمّ تدلُّ على تطوُّر القصة وأسفارها. فنحن لا نملك أيَّة فكرة عن أصولها وجذورها الشفويَّة قبل أن تستقرَّ في مجلس الثعلبي (العرائس) وقبله مفرَّقة في مصادر أخرى، خاضعة لعمليَّة التدوين والتنظيم التي توثّق مرويات وتقصي أخرى، وهذا ما يفسّر «اختلافات» السَّرد وتنوُّعه. فالثعلبي في مجلسه لا يروي حكاية واحدة، وإنَّما مجموعة من الأخبار. فبالنسبة إليه هناك روايات متعدّدة ومتنوّعة الأصوات تتقاسم أحياناً فيما بينها العناصر السرديَّة نفسها، والروابط الممكنة ذاتها التي تجمع بينها. وهذا التمايز الذي نلاحظه في الأخبار نجده في ثلاث وحدات كبرى نعرضها كالتالي:

بداية هناك الوحدة الأولى المكوَّنة من بعض الأسطر، وهي عبارة عن شبه «افتتاحيَّة» تعرّف بأصحاب الرَّس، حيث يتتبَّع الراوي (الثعلبي) «معاني» كلمة «الرَّس». وعلى ما يبدو من الشروح المُدرجة فقد عرفت الكلمة تأويلات مختلفة ومتعدّدة، وذلك منذ الجيل الأوَّل من الشرَّاح والمفسرّين كما سنذكره. بعد

24 نصادف في المصادر الإسلاميَّة الأخرى (التفاسير والتواريخ...) وخصوصاً في تفسير "الكشف" للثعلبي لآية الرَّس في سورة الفرقان ذكر أسماء كثيرة تنسب لها غالبيَّة الأقوال والأخبار المتعلقة بقصّتنا. انظر هامش رقم 39

ذلك يضيف الراوي بعض المحاولات لخلق سياق وتحديد المكان والزمان والإطار العام للقصَّة. ومنذ البداية -وكعادته في مجالسه الأخرى- يفتتح الثعلبي مجلسه بآية قرآنيَّة. وقد لعبت في سياق قصَّتنا الآية 38 من سورة الفرقان[25] السالفة الذكر «وعاداً وثمود وأصحاب الرَّس وقروناً بين ذلك كثيراً» دور الإشارة الافتتاحيَّة، أتبعها الراوي بعبارة «اختلف العلماء من أهل التفسير وأصحاب الأقاصيص فيهم»[26] (أي أصحاب الرَّس)، والتي تبيّن بوضوح تعامل الثعلبي مع مقاطع سرديَّة في غاية التباين والتنافر، وهذا ما تبيّنه لنا الأقوال والأخبار المختلفة المنسوبة لكلّ الرواة الذين نصادفهم طيلة صفحات قصَّتنا. ويبدو أنَّ الثعلبي -كما هو حال رواة آخرين - كان على وعي بتغاير واختلاف الأخبار وتنوُّع وتلوُّن السرد وتداخله. فهو يعلن بصراحة الراوي العارف أنَّه قد «دخل كلام بعضهم (أي الرواة) في بعض، وكلٌّ (راوٍ) أخبر بطائفة من حديث أصحاب الرَّس»، كما يبيّنه المقطع التالي:

«قال الله عزَّ وجلَّ: «وعاداً وثمود وأصحاب الرَّس»، وقال: «كذّبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرَّس». اختلف أهل التفسير وأصحاب الأقاصيص فيهم، فقال سعيد بن جبير والكلبي والخليل بن أحمد -دخل كلام بعضهم في بعض- وكلّ أخبر بطائفة من حديث أصحاب الرَّس أنَّ أصحاب الرس بقيَّة ثمود قوم صالح، وهم أصحاب البئر التي ذكرها الله تعالى في قوله: «وبئر معطلة وقصر مشيد»، وكانوا بفلج[27] اليمامة نزولاً على تلك البئر، وكلّ ركية لم تُطْو بالحجارة والآجر فهي رس، وكان لهم نبيّ يقال له حنظلة بن صفوان، وكان بأرضهم جبل يقال له فتج مصعداً في السماء ميلاً، وكانت العنقاء تبيت به، وهي كأعظم ما يكون من الطير، وفيها من كلّ لون، وسمّوها العنقاء لطول عنقها، وكانت في ذلك الجبل تنقضُّ على الطير فتأكلها، فجاعت ذات يوم فأعوزها الطير فانقضَّت على صبيّ فذهبت به، فسمّيت عنقاء مغرب لأنَّها تغرب بما تأخذه، ثم انقضَّت على جارية حين ترعرعت فأخذتها فضمَّتها إلى جناحين لها صغيرين سوى الجناحين الكبيرين، فشكوا ذلك إلى نبيّهم، فقال: اللّهم خذها واقطع نسلها وسلّط عليها آية تذهب بها، فأصابتها صاعقة فاحترقت فلم يرَ لها أثر بعد ذلك، فضربت بها العرب مثلاً في أشعارها وحكمها وأمثالها، ثمَّ إنَّ أصحاب الرَّس قتلوا نبيَّهم، فأهلكهم الله تعالى».[28]

فهذا المقطع المصنَّف من أخبار صغيرة مركَّبة كوحدة أولى سرديَّة جامعة، يصوّر فكرة أصل ومكان ونبيّ أصحاب الرَّس، حيث يربط الثعلبي في هذا الخبر بين أصحاب الرَّس وخبر «العنقاء» التي كانت تسكن بلدهم وتخطف صبيانهم. ونتساءل هل كان هذان العنصران ملتحمين منذ البداية، أم هو إقحام بَعْدي وليد

25 في معرض تفسيره لآية الرَّس في سورة الفرقان يسرد الثعلبي جلّ الأخبار التي نجدها في العرائس مع تغيير بعض الكلمات، وربَّما هذا تصحيف راجع للنسخ، إضافة إلى ذكر "قصة العبد الأسود" غير المذكورة في "العرائس".

26 العرائس ص 131

27 اليمامة منطقة في الجزيرة العربيَّة. انظر هامش رقم 43

28 العرائس، ص 131 و132

تطوُّر القصَّة؟ فطائر العنقاء الغريب الأوصاف نصادفه في سرديات عجيبة عند الدميري في كتابه «حياة الحيوان الكبرى»[29]، وفي سرديات تخييليَّة أخرى. والظاهر من هذا الخبر الصغير أنَّ الراوي القديم أقحم هذا الطائر فقط لتصوير مسألة دمار أصحاب الرَّس وهلاكهم. فنحن حيال خبر افتتاحي يلعب دور الإطار العام والعنصر المحدّد لهويَّة قصتنا ويعطي للقارئ والمستمع تصوُّراً عامَّاً (فكرة) لقصَّة ستعرف وحدات إخباريَّة أخرى. ويبقى العنصران الوصفيان الوحيدان والجامعان بين كلٍّ من أصحاب الرَّس والعنقاء هما الغرابة والهلاك.

أمَّا الوحدة الثانية المكّونة لقصَّتنا، والتي تختلف عن سابقتها من حيث عدد الأسطر، فهي مركّبة من مقطعين كبيرين حسب الطبعة التي اعتمدناها. ونستنتج من قراءة هذا الخبر الذي ينسبه الثعلبي «إلى بعض العلماء» (بدون ذكرهم) أنَّ هناك رسَّين: أهل بدو ومواشٍ وغنم، يعبدون إلهاً في البحر بعث الله إليهم نبيَّاً فقتلوه فأهلكهم الله لشركهم وتكذيبهم. ورسّ آخر، حسب الرواية، كان لأهله نهر يُدعى كذلك الرَّس ينسبون إليه، وكان فيهم أنبياء كُثر، وكان ذلك النهر بمنقطع «أذربيجان» بينها وبين «أرمينية»، وكانوا يعبدون الجواري العذارى، فإذا تمَّتْ لإحداهنّ ثلاثون سنة قتلوها، فبعث الله إليهم ثلاثين نبيَّاً في شهر واحد فقتلوهم جميعاً. وهذا الخبر أطول من الأول وهو مركّب من العناصر نفسها ويرمي للغرض نفسه. والظاهر أنَّه عبارة عن رواية أخرى أضاف لها القاصُّ عناصر أخرى تنسجم مع بعض الإحالات القرآنيَّة التي نجدها في آيتي الرَّس كعنصري العذاب واندثار القوم. وقد تفنَّن القاصُّ، كما هو ظاهر في الخبر، في تطويل هاتين الفكرتين بإقحام وصف يستوعب الأفكار القرآنيَّة التي أكّدت عليها آيتا الرَّس. ونختزل في اللّوحة التالية بعض عناصر الخبرين:

الرَّس الأول	الرَّس الثاني
أهل بدو	قوم لهم نهر يدعى الرَّس
أصحاب غنم ومواشٍ	بعث الله لهم أنبياء كثر فقتلوهم
بعث الله لهم نبيّاً فقتلوه	نهرهم بين أذربيجان وأرمينيا
بعث الله لهم رسولاً آخر عضَّده بوليّ	بعث الله لهم وليَّاً
كانوا يعتقدون أنَّ إلههم في البحر (الشيطان)	يعبدون الجواري العذارى ويقتلونهنَّ
يعبدون الشيطان	بعث الله لهم وليَّاً، وبعده ميكائيل
يقدّمون له القرابين	بعث الله لهم 500 ملك
أهلكهم الله بالريح التي ألقتهم في البحر	أيبس الله عيونهم، وأهلكهم بالغرق بالريَّاح الأربع وبالقتل والطاعون والصاعقة والخسف والصيحة.
انقطع نسلهم	بقيت منهم بقية أطاعوا الله في الظاهر، ونافقوا في الباطن. بقيت شرذمة أفحشوا (مارسوا الزنى والسحاق)، فبادت منازلهم.

29 حياة الحيوان الكبرى، 4 أجزاء، تحقيق إبراهيم صالح، دمشق، دار البشائر، 2005، ج 3، ص 225

أمَّا الوحدة الثالثة والأخيرة فتتكوَّن من خبر طويل يبدو منذ الوهلة الأولى منظّم التركيب ومتناسق الحبكة السرديَّة، يفتتحه الراوي بسند ينتهي إلى الخليفة عليّ. وللتذكير فهذا الخبر الطويل لا نجده عند الطبري (التفسير)، ويرجع، على ما يبدو، إلى رواية ذكرها ابن بابويه (ت سنة 381هـ) في كتابه «عيون أخبار الرضا»[30] في «باب ما جاء عن الرضا (ع) من حديث أصحاب الرَّس»، حيث يروي هذا الخبر بالسند التالي: «حدثنا أحمد بن زياد بن جعفر الهمداني قال حدثنا علي بن إبراهيم بن هاشم عن أبيه قال حدثنا أبو الصلت عبد السلام بن صالح الهروي قال حدثنا علي بن موسى الرضا (ع) عن أبيه موسى بن جعفر عن أبيه جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن علي عن أبيه علي بن الحسين عن أبيه الحسين بن علي (ع) قال أتى علي بن أبي طالب (ع) قبل مقتله بثلاثة أيام رجل من أشراف تميم يقال له عمرو فقال يا أمير المؤمنين أخبرني عن أصحاب الرَّس».

الملاحظ أنَّ الراوي قد أسقط الإسناد في جلّ أخباره الأخرى ذاكراً فقط أسماء بعض الرواة القدامى بدون تدقيق وضبط، ما عدا في الإسناد المذكور في هذه الوحدة.[31] وهنا نتساءل عن مدى نجاعة الإسناد في الخطاب القصصي الديني الذي يهمُّه فقط الدرس الوعظي والتأكيد عليه.[32]

وفي الأخير ينهي الثعلبي قصَّته، على شاكلة الراوي الواعظ، المتدخّل في سرده، بالاستعاذة بالله والصلاة والسلام على نبيّه محمَّد بالصيغة التالية: «فنعوذ بالله من غضبه ودرء نقمته، وإنَّه هو السميع العليم، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله العليّ العظيم وصلّى الله على سيّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً. والله أعلم».[33]

يبدو من خلال هذا الجرد السريع لمجمل الأخبار أنَّ قصّتنا (رواية الثعلبي) مركّبة من عناصر ثابتة في متن الحكاية تكرَّرت واستُعملت في هيكل الأخبار المذكورة (الوحدات الثلاث) ومن عناصر متحوّلة. فمن الثوابت هناك التركيز على بعض الأفكار؛ مثل فكرة الشرك بالله والضلال عن سبيله والتوحيد والتكذيب بأنبيائه وقتلهم وتصوير الهلاك. ومن المتغيّرات هناك مواضيع تمتُّ لشكل القصَّة وبنائها السردي كمعنى كلمة «الرَّس»، وذكر مكان أصحاب الرَّس، وزمانهم وعبادتهم وطريقة هلاكهم ونوعيَّة فواحشهم. فيمكن من الناحية الشكليَّة قراءة هذه الأخبار المكوّنة لقصّتنا كأخبار مفردة، فكلُّ خبر له استقلاليته وبالتالي يخضع

30 ابن بابويه، عيون أخبار الرضا، الجزء الأول، قم، مكتبة طوس، 1983، ص ص 183-186

31 الظاهر أنَّ الثعلبي في قصصه يقدّم متن الخبر على ذكر سلاسل الإسناد ربَّما خوفاً من الإطالة على متلقي هذا النوع من الخطاب الوعظي الذي يركز على العبرة أكثر من الإسناد، أو ربَّما هذا راجع لغياب أسانيد بعض القصص التي تشكلّت منذ بداياتها بدون سلسلة إسناد كاملة وواضحة.

32 نقص الاهتمام بالسند في كتب الأخبار مع بداية القرن الخامس الهجري خصوصاً في الأدب والخبر الديني.

33 العرائس، ص 135

لبداية ونهاية. ويبقى السؤال المطروح: ما العلاقة بين الخبر الأوَّل والأخبار الأخرى؟ وكيف تفاعلت جلُّ الأخبار فيما بينها وساهمت في بناء متخيّل قصَّتنا؟

4- بحثاً عن سياق

تبيَّن لنا ممَّا سبق أنَّ الثعلبي لم يترك قصة الرَّس في سياقها القرآني وفي الدرس الديني والاعتبار الممتنع عن كلّ تخييل، ولكنَّه تبنَّى مشروعاً سرديًّا في قصصه يكمن في إخراج ما أُبهم منها وتوضيحه لمستمعه، عقدة عقدها الراوي مع متلقّيه وشرحها في خطبة كتابه العرائس. ويرمي تنوُّع وتكرار الوحدات السرديَّة السالفة المكوّنة لقصَّتنا (وهذه الملاحظة تخصُّ كذلك خطاب قصص الأنبياء برمَّته) إلى فكرة الاقناع، وإقناع المتلّقي لا يتحقَّق بخبر واحد، وإنَّما بمجموعة من الأخبار المتنوّعة التي تصبُّ في الهدف نفسه، وهنا تكمن بلاغة هذا الخطاب السرديّ المستند إلى البنية الشفويَّة المفتوحة. فاستقلاليَّة كلّ خبر (الوحدات الثلاث) توحّدها وحدة الرؤية والتوجُّه الديني الذي ترمي إليه القصَّة الدينيَّة.[34]

وسنركّز الآن في تحليلنا على الخبر المؤسّس للوحدة الثالثة الذي أشرنا إليه سابقاً، يعني خبر الشريف التميمي ومساءلته الخليفة عليًّا، والخبر يُفتتح كالتالي:

«روى علي بن الحسين زين العابدين عن أبيه عن جدّه علي بن أبي طالب[35] أنَّ رجلاً من أشراف بني تميم يقال له عمر (أو عمرو في رواية أخرى) أتاه، فقال له: يا أمير المؤمنين أخبرني عن أصحاب الرَّس؟ وفي أيّ عصر كانوا؟ وأين كانت منازلهم؟ ومن كان ملكهم؟ وهل بعث الله إليهم رسولاً أم لا؟ وبماذا أهلكوا؟ فإنّي أجد في كتاب الله عزَّ وجلَّ ذكرهم ولا أجد خبرهم. فقال له أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: لقد سألتني عن حديث ما سألني عنه أحد قبلك ولا يحدّثك به أحد بعدي».[36]

فهذا الخبر، المكوَّن بطريقة تركيبيَّة تضمُّ مكوّنات الخطاب السردي وتظهر السند والراوي والمرويّ له، يحمل في مضمونه منذ البداية ما يمكن أن نسمّيه بـ«الغائب السردي» في النصّ القرآني، أو بصيغة أخرى «مُجمل المقرَّر السردي» (السياقي) الذي، يبدو حسب راويه، أُبهم في الآيات القرآنيَّة. فلنحاول تفحُّص الخبر ونبدأ بالسؤال التالي: لماذا اختار القاصُّ الشعبي وضع رواية قصَّة أصحاب الرَّس على عاتق الخليفة عَليّ وجعله الشاهد الرئيس على الحكاية؟

34 انظر خطبة كتابه عرائس المجالس والحِكم التي يدور في فلكها القصص القرآني.

35 حدث هذا اللقاء قبل قتله بثلاثة أيام، كما تزعم رواية ابن بابويه، "عيون أخبار الرضا"، المرجع السالف.

36 العرائس، ص 133

ربَّما لا تبدو العلاقة واضحة المعالم للمتلقّي المعاصر، فشخصيَّة عَليّ كسلطة دينيَّة ورمزيَّة، كما هو متداول، لها مكانتها في المتخيَّل الديني والسياسي الإسلاميْن.[37] وما يضفي على العنصر الأخير «شرعيَّة» في صناعة الخبر هو سلسلة السند التي لا تذكر إلا أسماء لـ»آل البيت»، واختيار رجل من «الأشراف» لمساءلة الخليفة عليّ يعضّد ملاحظتنا. فهل هناك علاقة بين كلّ هذا وزمن بناء الخبر وبناء الحكاية؟

منذ البداية يؤكّد الخبر على نقاط تميّز عليّ عن الرواة الآخرين، حيث أصبح أوَّلاً الراوي العليم بتفاصيل أصحاب الرَّس، وثانياً الراوي الوحيد والمتفرّد بهذه المعرفة، وثالثاً تميُّز رجل «شريف»، الشريف التميمي، بمساءلته. فالخبر كما يبدو مُبرمج بطريقة تضع كلّاً من السائل والمسؤول في مكانة مرموقة: «لقد سألتني عن حديث ما سألني عنه أحد قبلك»، يُصرّح عليّ. هكذا يصبح الخليفة الرابع المصدر الأساس والعارف بجزئيَّات قصَّتنا، و«العين» التي نبعت منها القصة، والمصدر الذي يرجع إليه كلُّ سرد ولا يمكن أن يحدّث به راوٍ آخر، أكان هذا الراوي قديماً أم متأخّراً، كما جزمت به العبارة: «لا يحدّثك به أحد بعدي».[38]

وبهذا البناء السردي ذي البنية الإخباريَّة الأسطوريَّة يوهمنا الراوي أنَّ الحكاية لم تُثر سؤال أحد ولم تُراود بـ«غرابتها وغموضها» مخيّلة أيّ مستمع أو قارئ للآيتين السالفتين في سورتي الفرقان وقاف. وهنا تظهر لنا استراتيجيَّة بناء الخبر في الثقافة العربيَّة الإسلاميَّة الوسيطيَّة واضحة المعالم. فالقاصُّ الشعبي، المختفي وراء أقنعة مختلفة، يختار رموزه، ويضع على عاتق من يريد رواياته، كما يختار الراوي ذا الشرعيَّة والمكانة الرمزيَّة، ويجعله فوق كلّ ذلك «مستوعباً» لقصة كلّ ما يمكن أن يقال عنها إنَّها غامضة التكوين، وربَّما تطوَّرت صياغتها حسب العصور والأمكنة.

وتبقى على العموم الأسئلة التي وضعها الشريف التميمي هي الأسئلة نفسها التي يضعها أيُّ قارئ أو مُتلقٍّ يريد معرفة «تاريخيَّة-سرديَّة» واضحة عن أصحاب الرَّس. فمن الناحية السرديَّة تخرج الأسئلة القصَّة من سياقها وتضعها في سياق الخبر والتخييل بالمعنى العام، كما تعطي للمحكي مشروعيَّة تأسيس الحكاية. ومن هذه الزاوية تبدأ عمليَّة التنقيب عن الوحدات السرديَّة، أو ربَّما اختلاقها وتنظيمها. ويبقى، حسب علمنا،

37 ذكر المجلسي في موسوعته الكبيرة، بحار الأنوار الجامعة لدرر الأئمة الأخيار، تحقيق لجنة من العلماء، بيروت، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 2008، في الجزء 14، ص 403 و404 قصَّة أصحاب الرَّس، وروى رواية الثعلبي مستنداً لأسانيد أخرى لأهل البيت، ويقول في معرض ذلك: "إنَّما أوردنا تلك الرواية بطولها (يعني مجلس الثعلبي لقصة الرَّس) لكونها كالشرح لروايتي يعقوب وهشام (روايات ذكرها)، بل لا يبعد أن يكون من قوله (يعني الثعلبي): «قال بعض العلماء رواية يعقوب بعينها، إذ كثيراً ما ينقل الثعلبي روايات الشيعة في كتابه (العرائس) هكذا».

38 يذكر المجلسي صيغاً أخرى تمجّد عليَّاً وعلمه: "لقد سألت عن حديث ما سألني عنه أحد قبلك ولا يحدثك به أحد بعدي إلا عنّي، وما في كتاب الله عزَّ وجلَّ آية إلا وأنا أعرف تفسيرها، وفي أيّ مكان نزلت من سهل أو جبل، وفي أيّ وقت نزلت من ليل أو نهار، وإنَّ هاهنا لعلماً جمًّا وأشار إلى صدره، ولكنَّ طلّابه يسير، وعن قليل يندمون لو فقدوني"، المرجع السالف.

مجلس الثعلبي أحسن مثال على هذا البناء والخلق والتصميم. فمن نواة الحوار بين الخليفة والشريف تكوَّن نسيج القصَّة وتنوَّع، وهذا ما لمسناه في كلّ العناصر المؤسّسة لفسيفساء الأخبار.[39]

5- فُسيفساء السرد

عنصر الرَّس

سبق أن قلنا إنَّ كلمة «الرَّس»[40] (الجمع رِساس) قد عرفت مجموعة من الشروح والتأويلات وأحياناً الإسقاطات المعنويَّة، ذكرها المفسّرون واللغويون القدامى وجمع بعضها الثعلبي في قصَّته. فالقارئ يصادف تأويلات كثيرة، فمن «بئر بأذربيجان» إلى «قرية من قرى اليمامة»، و«أهل أنطاكية»، ومن «ولد يهوذا» و«أصحاب الأخدود» ...إلخ. أقوال على ما يبدو متباينة، لكن، وهذا لا بدَّ من الإشارة إليه، هناك شبه إجماع من طرف المفسّرين واللغويين على أنَّ الكلمة تعني «البئر»: بئراً رسُّوا فيها نبيَّهم[41]. ويشفع لهذا التأويل بعض المعاني اللّغويَّة للكلمة، وإن كانت تبدو، كما سنراه أحياناً، مشتركة المعاني.

ولتقريب القارئ من بعض هذه المعاني نتتبَّع مادة «ر/ س/ س» في لسان العرب وبعض المعاجم الأخرى[42]، التي يغلب عليها طابع الجمع والاستقصاء التوثيقي، بحيث تظهر هذه الخلفيَّة في كلمة «الرَّس». فقد حاول المعجميُّون وقبلهم المفسّرون الإحاطة بمعنى الكلمة الغامض وفهمه، ويبدو أنَّ اللّفظ قد استغلق واضطرب المعنى، فنقرأ أقوالاً مختلفة مسندة ومكرَّرة (عبارة عن تراكمات معنويَّة) ومؤيَّدة بشواهد تعدّد الأقوال والمعاني كما تبيّنه اللوحة التالية:

بعض المعاني العامَّة للكلمة	المعاني المتعلّقة بالآية
الرَّسّ هو الصُلح والإصلاح	البئر، أو البئر المطويَّة بالحجارة، أو بئر لثمود
الرَّسّ هو ابتداء الشيء	اسم وادٍ، ويقال أيضاً وادٍ بأذربيجان
الرَّسّ في الشعر القافية	أهل الرَّسّ هم الذين يبتدؤون الكذب ويوقعونه في أفواه الناس (تاج العروس)

39 روى قصّتنا في المصادر الإسلاميَّة كلّ من عليّ وابن عباس وكعب الأحبار وقتادة والسدّي وابن اسحاق وابن جريج. ونجد جلَّ الوحدات السرديَّة التي تتعلق بها موزّعة كذلك في كتب التفاسير والقصص القديمة والمتأخّرة منها، تعاد وتكرَّر حيث أصبحت مادة مشتركة للجميع، ووعاء إخبارياً يغرف منه الجميع. والمعروف عن الأسماء السالفة اهتمامها بالأخبار والآثار التفسيريَّة ولبعضها باع طويل فيما سمَّاه الخطاب الإسلامي: "الإسرائيليات"، والبعض الآخر، مثل ابن عباس، أصبح يمثّل في المخيال الإسلامي الأب الروحي للتفسير وترجمان القرآن.

40 والرَّس هو كذلك اسم مدينة في السعوديَّة في منطقة القصيم.

41 يضيف الأصفهاني، معجم ألفاظ القرآن، دمشق، دار القلم، 2009، معنى "الواد"، وأصل الرَّس الأثر القليل الموجود في الشيء". انظر الكتاب تحت مادة "رس"، ص 352

42 اقتصرنا على هذه المعاجم، انظر موقع الباحث العربي على الرابط الذي يقدّم خدمة البحث في أهمّ القواميس والمراجع اللغويَّة العربيَّة:

http://www.baheth.info/index.jsp?page=/web/includes/start.jsp

الرَّسَّة وهي السارية المحكمة	الرَّسّ ديار لطائفة من ثمود
البقيَّة أو الأثر	قرية باليمامة يقال لها "فلج"*
رسَّ الحديث في نفسه حدَّثها به	رُسّ الميت أي قُبر (دُفن)
رسّ من الخبر: طرف منه	الرسيس واديان بنجد أو موضعان
الخبر أو العلامة وقيل المعدن	وقيل هما ماءان في بلاد العرب معروفان

لا نملك بعد قراءة وتتبُّع هذه التفسيرات والتأويلات اللّغوية أيَّ معنى واضح للكلمة، ولا يعطينا لا ابن منظور ولا أصحاب المعاجم الأخرى أيَّ ترجيح لمعنى من المعاني المتواترة الذكر، ونبقى ضائعين في تيه المعنى. فتأويلات الكلمة ناتجة عن إطار زماني وثقافي معيَّن، والواضح من خلال التفسيرات هو تفاعل الرواة القدامى واللّغويين مع كلمة الرَّس وآياتها بطرق مختلفة، وكلُّ الكلام المذكور لا يساعدنا في سبر معنى الكلمة. فهناك اتّجاهات ومعانٍ تراكمت وتطوَّرت لا نجد رابطاً بينها، تحيط بها أخبار صغيرة غايتها تفسير فحوى الكلمة. فهل هناك تطوُّر في المعنى من حقيقي ومجازي ومشتقّ، أم هو فقط خلط دلالي وإبهام وغموض؟ ولا تساعدنا كذلك الأخبار في سبر معنى الكلمة، حيث إنَّ بعضها، كما سنرى، يتَّصف بالغرابة كما نجده في المقطع السردي التالي الذي يقحمه الثعلبي في سرده للتعريف بهؤلاء القوم، والتأكيد على بعض ممارساتهم الشاذة:

«ثمَّ أحدثوا فاحشة، جعل الرجل يدعو ابنته وأخته وزوجته فيعطيها جاره وأخاه وصديقه يلتمس بذلك البرَّ والصلة. ثم ارتفعوا من ذلك إلى نوع آخر، ترك الرجال للنساء حتى شبقن واستغنى الرجال بالرجال، فجاءت للنساء شيطانة في صورة امرأة وهي الدلهان بنت إبليس[43]، وهي أخت الشيطان وكانا في بيضة واحدة، فشهَّت للنساء ركوب بعضهن بعضاً وعلّمتهن كيف يصنعن، فأصل ركوب النساء بعضهن بعضاً من الدلهان».[44]

كلُّ ما يمكن أن نقول في حقّ التعريفات السالفة إنَّها مختلفة وتشير إلى غموض الكلمة، وفي الوقت نفسه القصَّة، على جيل المفسّرين الأوائل، ونوع من الحرج الذي وقع فيه المتأخّرون من المفسّرين، لأنَّهم لم يجدوا مستنداً صحيحاً للروايات المتعدّدة التي توارثوها وأقحموها في تفاسيرهم.

* «الفَلَجُ»، حسب ابن منظور بالتحريك، يعني «النهر الصغير، وقيل الماء الجاري» ويضيف «الفَلَجُ أرض لبني جَعْدَةَ وغيرهم من قَيْسِ من نَجْدٍ. وفي الحديث ذكر فَلَج هو بفتحتين قرية عظيمة من ناحية اليمامة وموضع باليمن من مساكن عادٍ، وهو بسكون اللام وادٍ بين البَصْرةِ وحِمَى ضَرِيَّة».

43 في بعض الروايات نقرأ الدلهات.

44 العرائس، ص 133

عنصر التحقيب

لوضع أصحاب الرَّسّ في سياق زمني معيَّن استغلَّ الرواة والمفسّرون ما يمكن أن ننعته جزافاً بـ«الإشارة» الزمنيَّة القرآنيَّة، ومضوا في وضع هذا القوم في سياق زمني وترتيب معيَّن. والظاهر من شذرات الأخبار التي وصلتنا أنَّ هذه المسألة شغلت بالهم فحاولوا جهد المستطاع اختلاق كلّ الافتراضات الممكنة. وهكذا تتالت الحقب التي لا يوحّدها سوى البناء الميثولوجي لقصة تستعصي منذ البداية على كلّ تحقيب. فأحداث القصَّة المتنوّعة وُضعت طوراً قبل سليمان وطوراً آخر قبل نبوَّة الإسلام[45]، في حين اعتبرت أخبار أخرى أصحاب الرَّس من «الأمم الغابرة» التي دمَّرها الله في زمن عاد وثمود، ومرَّة أخرى نتيه في كلّ هذه التدقيقات.

عنصر النَّبيّ

لا يوجد إجماع في الأخبار حول اسم نبيّ أصحاب الرَّس. فالثعلبي يذكر أنَّ الله بعث إليهم نبيَّاً من أنبياء بني إسرائيل من ولد يهوذا بن يعقوب يدعوهم إلى الله، فتارة يسمّيه «حنظله بن صفوان» وأحياناً، كما هو الحال في مصادر أخرى، يُدعى «خالد بن سنان» وطوراً «شعيب»، وهو غير النَّبيّ شعيب المقرون بقوم مدين والمسمَّى تصريحاً في القرآن.[46]

عنصر عبادة الشجرة

ذكر الثعلبي وأصحاب القصص هذا العنصر الموجود في بعض الأخبار، وربطوه بقصَّتنا، وأضافوا في وصفه مجموعة من الأوصاف ذات البُعد الأنثروبولوجي المرتبط ببعض الطقوس التي تمارس حول شجرة الصنوبرة. فمن المعروف أنَّ هناك مجموعة من الثقافات القديمة قدَّست شجرة الصنوبر هذه، وهذا ما يبيّن توغّل ثقافة تقديس الأشجار في قصص الأنبياء وكلّ المعتقدات التي تحوم حولها. والاعتقاد بوجود أرواح في هذه الأشجار من المعتقدات القديمة وكذلك الحال بتقديسها وجعلها رمز القوَّة. والعرب، على غرار الأمم الأخرى، عظَّموا الأشجار وعبدوها، وما زال هذا التبجيل والاحترام قائماً إلى الآن، وما زالت الأساطير والتخييل الميثولوجي المرتبط بالعفاريت والشياطين المقترنة بالأشجار حيَّاً في المتخيّل الديني. وفي سرد الثعلبي نجد صدى لكلّ هذه الأفكار، وذلك كما يصوّره الخبر التالي المؤثّث بكلمات فارسيَّة، ممَّا يعطينا فكرة عن سياق تكوين هذا الخبر السردي الذي له استقلاليته، والذي يعيد الأفكار نفسها التي ذكرتها الوحدات الإخباريَّة الأخرى ويضيف إليها عناصر تكوينيَّة سرديَّة تتعلّق بعنصر عبادة الشجرة:

45 أو قبل عاد بدهور طويلة، حسب رواية لابن عساكر، ذكرها ابن كثير، قصص الأنبياء، ص 353

46 وفي أخبار أخرى يحمل النبيّ اسم خالد بن سنان.

«... إنَّهم (قوم الرَّس) كانوا قوماً يعبدون شجرة صنوبر يقال لها «شات درخت»[47]، كان يافث بن نوح غرسها على شفير عين يقال لها «دوسان»[48] كانت نبعت لنوح عليه السلام بعد الطوفان، وإنَّما سُمّوا أصحاب الرَّسّ لأنَّهم رسّوا نبيَّهم في الأرض وذلك قبل سليمان بن داود عليهما السلام، وكان لهم اثنتا عشرة قرية على شاطئ نهر يقال له الرَّس من بلاد المشرق، وبهم سمّي ذلك النهر، ولم يكن يومئذ في الأرض أغزر منه ولا أعذب منه، ولا قرى أكثر سكَّاناً وعمراناً منها، وكان أعظم منازلهم «اسفنديا»[49] وهي التي ينزلها ملكهم، وكان يُسمَّى تركون بن عابور بن نوش بن سارب بن نمرود بن كنعان فرعون إبراهيم عليه السلام، وفيها العين التي يسقون منها الصنوبرة التي كانوا يعبدونها، وقد غرسوا في كلّ قرية منها حبَّة من طلع تلك الصنوبرة، فتنبت تلك الحبَّة وتصير شجرة عظيمة، ثم حرَّموا ماء تلك العين والأنهار فلا يشربون منها لا هم ولا أنعامهم، ومن فعل ذلك قتلوه، ويقولون هي حياة آلهتنا فلا ينبغي لأحد أن ينقص من حياتها، ويشربون هم وأنعامهم من نهر الرَّس الذي عليه قراهم، وقد جعلوا في كلّ شهر من السنة في كلّ قرية عيداً يجتمع إليه أهلها ويضربون على تلك الشجرة التي بها مظلّة من الحرير فيها أصناف الصور، ثم يأتون بشياه وبقر فيذبحونها قرباناً للشجرة ويشعلون فيها النيران بالحطب الكثير، فإذا سطع دخان تلك الذبائح وقتارها وبخارها في الهواء، وحال بينهم وبين النظر للسماء، خرُّوا سجَّداً للشجرة يبكون ويتضرَّعون إليها أن ترضى عنهم».[50]

هذا الخبر عبارة عن لوحة مكوَّنة من صور متنوّعة تصف جزئيات سرديَّة وتضع المستمع والقارئ أمام مشهد طقوسي يصف اعتقادات وإجراءات واضحة لم يذكرها الخبر الأوَّل مع التأكيد على ممارسات وعناصر كتعدُّد الاحتفالات (عيد في كلّ شهر وفي كلّ قرية) وشرب الخمر والضرب على المعازف والصلاة (شكل الصلاة والابتهالات والقرابين المقدَّمة) كما يرويه ويعيده الخبر الآخر:

«وكان الشيطان يجيء فيحرّك أغصانها ويصيح في ساقها صياح الصبيّ: عبادي قد رضيت عنكم عبادي فطيبوا نفساً وقرُّوا عيناً، فيرفعون عند ذلك رؤوسهم ويشربون الخمر ويضربون المعازف فيكونون على ذلك يومهم وليلتهم، ثم ينصرفون حتى إذا كان عيد قريتهم العظمى اجتمع إليه صغيرهم وكبيرهم فيضربون عند شجرة الصنوبر والعين سرادقاً من ديباج وعليه أنواع الصور، له اثنا عشر باباً كلُّ باب لأهل قرية منهم فيسجدون للصنوبرة من خارج السرادق ويقرّبون إليها الذبائح أضعاف ما قرَّبوا للشجرة التي في قراهم، فيجيء إبليس عند ذلك فيحرّك الصنوبرة تحريكاً شديداً ويتكلّم من جوفها كلاماً جهورياً يعدهم ويمنّيهم بأكثر ممَّا وعدتهم الشياطين جميعاً، فيرفعون رؤوسهم من السجود ولهم من الفرح والسرور ما لا

47 كلمة "درخت" (الفارسيَّة) تعني شجرة، والعبارة على ما يبدو تعني الشجرة الكبيرة.

48 أو"روشنا آب" في رواية أخرى.

49 أسفنديار أو "اسفندار" في روايات أخرى.

50 العرائس، ص 134

يفيقون ولا يتكلمون معه فيديمون الشرب والمعازف ويكونون على ذلك اثني عشر يوماً وليلة بعدد أعيادهم في السنة، ثمَّ إنَّهم ينصرفون».[51]

والظاهر من هذا السرد أنَّ هناك علاقة بين هذه الوحدة الإخباريَّة وإحالات على بعض الأساطير الشرقيَّة القديمة التي استلهمها الرواة والقصَّاص القدامى فأقحموها في شرح آية الرَّس.

عنصر قتل النبيّ

ساق الثعلبي روايات مختلفة تصوّر قتل أصحاب الرَّسّ لنبيّهم. والملاحظ أنَّ القاصّ الشعبي والراويَّ القديم تفنَّنا في نسج أوصاف بعض جزئيات الحكي وتنظيم بنائها السردي، كما تقرّبنا منه المقاطع التالية:

«اتّخذوا (أي أصحاب الرَّس) أنابيب طوالاً من رصاص واسعة الأفواه، ثم إنَّهم أرسلوها إلى قرار العين واحدة فوق الأخرى مثل البرابخ[52]، ونزحوا ما فيها من الماء ثم حفروا في قعرها بئراً ضيّقة العين عميقة فرسوْا فيها نبيَّهم وألقوا فيها صخرة عظيمة، ثم أخرجوا الأنابيب من الماء».[53]

وقد ركّزت أخبار أخرى على طرق مغايرة في القتل وصوَّرتها بطرق أخرى:

- «إلقاء نبيّهم في بئر».

- «حفروا له بئراً وألقوه فيها، ثمَّ أطبقوا عليه بحجر ضخم»، (خبر العبد الأسود).

- «حفروا بئراً عميقة وألقوه فيها، وسدُّوا فوهتها، فلم يزالوا عليها يسمعون أنينه حتَّى مات».[54]

عنصر التكذيب والهلاك

تجد قصَّة الرَّسّ مكانها الطبيعي داخل صنف من القصص القرآني المذكور في بعض الآيات القليلة، والذي يبتدئ بالعبارة القرآنية: و«كم من قرية أهلكناها».[55] أقوام ملعونة وأمم هالكة وبائدة سمَّى بعضها القرآن كعاد وثمود وأصحاب الأيكة وقوم تُبَّع. وتشترك قصَّتنا مع هذه القصص القرآنيَّة بذكر عنصر

51 العرائس، الصفحة نفسها.

52 أنبوب ومنفذ الماء ومجراه.

53 العرائس، ص 134، 135

54 وفي رواية منسوبة إلى الكلبي نقرأ "أكلوه"، ذكرها الطبرسي في معرض تفسيره لآية الرَّس في سورة الفرقان، ممَّا يظهر مرَّة أخرى الاختلافات التي أشار إليها المفسّرون الأوائل.

55 آيات كثيرة تتكلّم عن الهلاك والدمار، نذكر على سبيل المثال: القصص/58 والحج/45 والأنعام/123 والأعراف/4 والنمل/58 إلخ.

العذاب الذي تفنَّن السرد في تصوير ألوانه، فمن «صيحة» و«ريح عاصفة حمراء»، إلى «أرض اتَّقدت فتحوَّلت إلى حجر كبريت»، و«سحابة سوداء تلقي حجراً ملتهباً كالقبَّة يذيب الأبدان»، و«خسف وتدمير»، و«هلاك»، و«تفجير النهر» و«صاعقة» و«دمار» و«رياح» و«جفاف» و«جوع». مجموعة من أشكال العذاب اتَّحدت وتفرَّعت وتفنَّنت في وصف العذاب الذي سلّطه الله على أصحاب الرَّس. أخبار مهولة ومخيفة ناتجة عن مخيِّلة الرواة التي تحاول شرح شقّ آية الرَّس «ودمَّرناهم تدميراً»، كما يصوّره المقطع التالي:

«فبعث الله إليهم نبيًّا وأيَّده بنصره وبعث معه وليًّا، فجاهدهم في الله حقَّ جهاده، ثم بعث إليه ميكائيل حين نابذوه وكان في أوان وقوع الحبّ في الأرض، وكانوا عند ذاك أحوج ما يكونون إلى الماء فحفر نهرهم في البحر وانصبَّ ما في أسفله، وأتى إلى عيونه من فوق فسدَّها، وبعث الله إليه خمسمئة من الملائكة أعواناً له فغروا ما بقي في وسط نهرهم، ثم أمر الله جبرائيل فنزل فلم يدع في أرضهم عيناً ولا نهراً إلا أيبسه بإذن الله تعالى، وأمر ملك الموت فانطلق إلى المواشي فأماتها دفعة واحدة، وأمر الريَّاح الأربع: الجنوب والشمال والدبور والصبا فضمَّت ما كان لهم من متاع، وألقى الله تعالى عليهم السبات، ثم خفقت الرياح الأربع بذلك المتاع أجمع فرمته في رؤوس الجبال وبطون الأودية، وأمَّا ما كان من حِلي وتِبر وآنية فإنَّ الله تعالى أمر الأرض فابتلعته فأصبحوا لا شاة عندهم ولا بقرة، ولا مال يعودون إليه، ولا ماء يشربونه، ولا طعام يأكلونه».[56]

عنصر عبادة الشيطان

تُصوّره أخبار قصَّة أصحاب الرَّس بطريقة عجائبيَّة، حيث أصبح عبارة عن إله يُعبد ويسعى القوم للتقرُّب إليه بطقوس وثنيَّة. ويصادف القارئ مرَّة أخرى عناصر تصويريَّة لطقوس استلهمتها الحكاية من أساطير ومعتقدات وظواهر اجتماعيَّة قديمة. فالشيطان كما نعرف من خلال الديانات التوحيديَّة هو الخصم الأوَّل ورمز التمرُّد والعصيان. وهذا جليّ في الخبر التالي:

«وكان يخرج إليهم من البحر شيطان في كلّ شهر خرجة فيذبحون عنده ويتَّخذونه عيداً، فقال لهم الوليّ: أرأيتم إنْ خرج إلهكم الذي تدعونه وتعبدونه إليَّ وأطاعني أتجيبونني إلى ما دعوتكم إليه؟ قالوا: بلى، فأعطوه على ذلك العهود والمواثيق، فانتظر حتى خرج ذلك الشيطان على صورة حوت راكباً أربعة حيتان، وله عنق مستعلية وعلى رأسه مثل التاج، فلما نظروا إليه خرُّوا سُجَّداً. فخرج الوليُّ إليه وقال له: ائتني طوعاً أو كرهاً باسم الله الكريم فنزل عند ذلك من على إخوته[57] فقال له الوليُّ: ائتني راكباً عليهن لئلا يكون

56 العرائس، ص 132 و133

57 ربَّما الكلمة هنا "أخواته" (حيتان) كما نجده في روايات أخرى. والظاهر أنّ هذا النوع من السرد عرف استعمال ألفاظ وعبارات مختلفة لتصوير الفكرة نفسها.

القوم من أمرهم علىَّ شكّ، فأتى الحوت وأتت به الحيتان به حتَّى أفضوا به إلى البرية يجرُّونه ويجرُّهم، فلما رأوا ذلك سخروا وكذّبوه ونقضوا العهود فبعث الله إليهم ريحاً فألقتهم في البحر ومواشيهم جميعاً وما كانوا يملكون من ذهب وفضة وآنية، فأتى الوليُّ الصالح إلى البحر وأخذ الذهب والفضة والأواني فقسَّمها على أصحابه بالسويَّة حتى الصغير والكبير وانقطع ذلك النسل.»[58]

عنصر العبد الأسود

لاحظنا منذ تتبُّعنا للوحدات السرديَّة المؤسّسة لقصَّتنا أنَّ الثعلبي لم يذكر في مجلسه خبر العبد الأسود، في حين ذكره في تفسيره «الكشف والبيان عن تفسير القرآن» في معرض تفسيره لآية الرَّس في سورة الفرقان. والخبر كما رواه قديماً محمَّد بن إسحاق عن محمَّد بن كعب القرظي نجده عند مجموعة من الإخباريين والمفسّرين وفي كتب قصص الأنبياء.[59] والظاهر أنَّ جيل عكرمة ووهب وابن اسحاق كانوا على علم بهذا الحديث، وهو كالتالي كما يرويه الطبري:

«قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: إنَّ أوَّل الناس يدخل الجنَّة يوم القيامة العبد الأسود، وذلك أنَّ الله سبحانه بعث نبيًّاً إلى أهل قرية فلم يؤمن به من أهلها أحد إلا ذلك الأسود، ثمَّ إنَّ أهل القرية عدَوا على ذلك النبيّ فحفروا له بئراً فألقوه فيها، ثم أُطبق عليه بحجر ضخم، وكان ذلك العبد الأسود يذهب فيحتطب على ظهره، ثم يأتي بحطبه فيبيعه فيشتري به طعاماً وشراباً، ثم يأتي به إلى تلك البئر فيرفع تلك الصخرة يعينه الله عليها فيدلّي إليه طعامه وشرابه ثم يردّها كما كانت.

قال: وكان كذلك ما شاء الله أن يكون، ثمَّ إنَّه ذهب يوماً يحتطب كما كان يصنع فجمع حطبه وحزم حزمته وفرغ منها، فلمَّا أراد أن يحتملها وجد سِنَة فاضطجع فنام فضرب الله على أُذنه سبع سنين، ثم إنَّه هبَّ فتمطّى فتحوَّل لشقّه الآخر فاضطجع، فضرب الله على أُذنه سبع سنين أُخرى، ثم إنَّه هبَّ فاحتمل حزمته ولا يحسَبُ إلا أنَّه نام ساعة من نهار، فجاء إلى القرية فباع حزمته، ثم اشترى طعاماً وشراباً كما كان يصنع، ثم ذهب إلى الحفرة في موضعها التي كانت فيه فالتمسه فلم يجده. وقد كان بدا لقومه فيه بداء[60] فاستخرجوه فآمنوا به وصدَّقوه. قال: وكان النبيُّ يسألهم عن ذلك الأسود ما فعل؟ فيقولون له: ما ندري، حتى قبض الله ذلك النبيّ، فأهبَّ الله ذلك الأسود من نومه بعد ذلك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم إنَّ ذلك الأسود لأوَّل من يدخل الجنَّة».[61]

---

58 العرائس، ص 132

59 على ما يبدو فالطبري في معرض تفسيره لسورة الفرقان (آية الرَّس) يعتبر من الأوائل الذين رووا هذا الخبر، وذكره كذلك الثعلبي في تفسيره والقرطبي وآخرون.

60 يعني: أمْر.

61 ذكره الطبري في معرض تفسيره لآية الرَّس، ووصفه بـ"حديث مرسل، ومثله فيه نظر. ولعلّ بسط قصَّته من كلام محمَّد بن كعب القرظي".

يعتبر هذا الخبر، الذي يصنّف بطريقة سرديَّة عجيبة عناصر من قصَّة الرَّس (التكذيب، البئر) في وحدة إخباريَّة صغيرة ومستقلّة، من الوحدات المتواردة في كتب التفاسير القديمة. والملاحظ كما ورد هو أنَّ الثعلبي يذكره في تفسيره ويسقطه في كتاب العرائس. وكلُّ ما يمكن أن نضيفه إزاء هذا الخبر الكلام الذي ذكره الطبري في تفسيره ورواه عنه كلّ من الثعلبي في تفسيره وآخرون: «إنَّ هؤلاء في هذا الخبر آمنوا بنبيّهم واستخرجوه من حفرته، فلا ينبغي أن يكونوا المعنيّين بقوله: «وأصحَابَ الرَّسّ» (في الآية) لأنَّ الله أخبر عن أصحاب الرَّسّ أنَّه دمَّرهم تدميراً، إلا أن يكونوا دمّروا بأحداث أحدثوها بعد نبيّهم الذي استخرجوه من الحفرة وآمنوا به، فيكون ذلك وجهاً»[62]. الملاحظة نفسها نجدها لدى الثعلبي في معرض تفسيره للآية نفسها، وربَّما هذا تعليل لعدم ذكرها في مجلس أصحاب الرَّس.

6- خاتمة

ما يمكن استخلاصه من هذه الجولة في صحبة أخبار قصَّة أصحاب الرَّس هو أنَّ الرواة القدامى تجنَّدوا لتفسير آيتي الرَّس تفسيراً «مؤلّفاً» من فسيفساء سرديَّة مفتوحة، والملاحظ أنَّ الأخبار المذكورة، وهي عبارة عن أجزاء مركّبة من نتف من الأخبار على شكل شظايا ومتفرّقات، لا تخلو من غموض في الملامح وغرابة كبيرة في التكوين. فهناك أثر سرديّ كتابي على ما يبدو مُتجذّر في شفاهية وأساطير غابرة حافظ على بعض أشكالها الخطابُ السردي الإسلامي القديم في مصادره، وتمَّ ترتيبها وتنظيمها وإعادة روايتها عبر العصور والحقب في معظم كتب التفسير والقصص. لكنَّ هذا التكوين السردي الذي يخفي صناعته أظهر في الوقت نفسه «حرج» المفسّرين والرواة القدامى الذين ما فتئوا يعدّدون ويردّدون الأقوال في ذكر سياقات زمنيَّة ومكانيَّة وعناصر عجائبيَّة. وهذا ما دفع بعضهم إلى نقد هذا «التلفيق» والشكّ في الأخبار.[63]

فالآيات القرآنيَّة كما بيَّناه مجملة جدًّا لا تجيب عن أسئلة الشريف التميمي ولا عن أسئلة كلّ الرواة المنقّبين عن المادة السرديَّة لبناء حكاية دينيَّة بصفة خاصَّة، ولا عن أسئلة كلّ متلقٍّ بصفة عامَّة. فالروايات رغم غرابتها والارتباك الذي أوقعت فيه أصحابها ما فتئت تتردَّد وتُروى، وذلك منذ زمن سحيق.[64]

وتبقى قصة الرَّس، بالنسبة إلينا ومن زاوية تعاملنا الأدبي معها، عبارة عن نتاج تسلسل إخباريّ وخيوط حكائيَّة حاول راوينا المفسّر (الثعلبي) ربط وحداتها السرديَّة المتراكمة. فقد نظّم هذا الأخير متن ومبنى

62 المرجع نفسه.

63 "واعلم أنَّ شيئاً من هذه الروايات غير معلوم بالقرآن ولا بخبر قويّ الإسناد، ولكنّهم كيف كانوا أخبر الله تعالى عنهم أنّهم أهلكوا". كما ذكره الرازي في نهاية تفسيره لآية الرَّس في سورة الفرقان، وكذلك قبله الطبري والقرطبي. ويبدو أنَّ المفسرين الأوائل في القرن الأول والثاني الهجريين قد اقتصر تفسيرهم لآية الرَّس على بعض الجمل وأحياناً على بعض الكلمات المنسوبة لكلّ من ابن عباس وعكرمة وقتادة والكلبي ومقاتل بن سليمان. وغالب هذه الأقوال وصلتنا في مصادر القرن الثالث والرابع الهجريين.

64 يُظهر غالبية المفسرين تريّثهم وعدم ثقتهم بما يروون، وهذا يبدو للوهلة الأولى كمفارقة.

الحكاية وشكّل حسب منظوره جوهر أحداثها من مجموعة من الأخبار، غالبيتها متحرّر من الإسناد (ما عدا خبر التميمي)، والأقوال التي توالدت وتسلسلت ونبعت من خزّان إخباري قديم ومتخيَّل مشترك.[65]

فكلُّ ما رواه الثعلبي في مجلسه محكوم برؤيته كراوٍ مُنظّم لأخبار في حوزته قرأها في مصادر قديمة أخرى وأعاد ترتيب مروياتها. فالخبر، الذي كان (ربَّما) وحدة مستقلّة مرتبطة بعنصر من عناصر القصَّة خضع للعمليات السالفة وتجسَّد فعله في مادَّة قصصيَّة متعدّدة الأصوات، يبقى وفيًّا لرهان الشرح والتفسير والقصّ الذي عبَّر عنه بطرق شتّى.

وقد تبيَّن من جلّ الروايات التي في حوزتنا أنَّ الرواة القدامى اتَّفقوا على الإطار السردي القرآني، لكنَّهم اختلفوا في إبداع سرد موحَّد، أو على الأقل هذا ما يبدو من الوحدات الإخباريَّة التي نمتلكها. فهناك تباين واختلاف يصعب وجود ألفة ووحدة بينهما. خطاب ميثولوجي ركّز على عناصر ومفارقات سرديَّة كان الرواة أحياناً على دراية بصناعة السرد واختزلوها في عبارات كما ذكرها الثعلبي ـ تفصح عن اختلافهم وتناقضهم:

- «اختلف العلماء من أهل التفسير وأصحاب القصص فيهم».

- «دخل كلام بعضهم (الرواة) في بعض».

- «كلُّ (راو) أخبر بطائفة من حديث أصحاب الرَّس».[66]

فراوينا، كما أسلفنا، كان على وعي بالتفاصيل السرديَّة الموجودة في بطون مصادر السرد العربي القديم منذ البدايات الأولى، ولم يغفل تذكير قارئه على تنوُّع السرد وتكوُّنه من «طائفة» من الأخبار والأحاديث المختلفة. وهكذا تجلّت قصَّته على شكل لوحات لمظاهر متعدّدة لقصَّة عرفت تحوُّلات وتغيُّرات وروايات أضحت مكوّناً من مكوّنات الخطاب الأسطوري المتأثّر بعامل الرواية الشفويَّة والكتابيَّة. فغالباً ما ترجع تفاصيل قصَّتنا إلى الخطابات المكوَّنة من عناصر كثيرة مختلفة تجيب عن تساؤلات وغيابات سرديَّة. وهكذا أخرج الراوي (الثعلبي) وقبله القاصُّ الشعبيُّ القديم نسيجاً سردياً يحاول الإجابة عن كلّ التساؤلات التي طرحتها هذه القصَّة. فمن آيتين في القرآن إلى أخبار مختلفة المشارب تأسَّست القصَّة الدينيَّة في الخطاب السردي الوسيط منظّمة من شخوص وزمان ومكان وعناصر متلوّنة، غايتها الأولى خدمة الدّين الجديد (الإسلام)، وقاسمها المشترك هو الدرس الدّيني والاعتبار.

---

65 ذكر الثعلبي في مقدّمة تفسيره "الكشف والبيان" اعتماده على كتب كثيرة، إضافة إلى ما سمعه من شيوخه. ومن مصادر الثعلبي الأساسيَّة هناك كذلك تفسير "جامع البيان" للطبري، ويظهر ذلك بمقارنة بعض القصص.

66 العرائس، ص 131

وكما نعلم فخطاب الوعظ مليء بالقصص التي ترقّق القلوب وتخاطب الإحساس والعاطفة. وقد اشتهر الثعلبي قديماً واعظاً «طويل الباع في الوعظ»، كما وصفه الذهبي[67]، مشتغلاً بالتذكير، و«سالكاً مسالك الورع والزهد». فهذا القصص الدّيني كان موجَّهاً لعامَّة الناس، ولهذا نراه يتبنَّى أسلوب التهويل والمبالغة والنصح وتذكير المتلّقي بالعواقب. أمَّا الغريب والعجيب فهو مطيَّة في سبيل الوصول إلى هذا التوجُّه الديني واحتواء مشاعر المستمع.

وتبقى أخيراً قصَّة أصحاب الرَّس في حلّتها وصناعتها على شكل فسيفساء من الأخبار ولوحات مغايرة لبعض مظاهر حكاية طاعنة في الغرابة. وقد أظهر لنا التحليل وتفكيك وحدات القصَّة واختزالها في إطار المجلس المُصنَّف والمنظّم عملية تدوينيَّة تحمل في بنياتها صدى عدم التمام، وما وصلنا - إن صحَّت هذه الفرضيَّة - لا يعدو نزراً قليلاً (روايات مختلفة وراجعة بدون شكّ لظروف مختلفة) من قصَّة ضاع نسقها ومبناها وهيكلها السردي الأوَّل، رُويت قديماً في سياق الخبر، وما زالت تُروى وتُعاد صياغتها إلى حدود عصرنا في أشكال روائيَّة أخرى كرسوم متحرّكة تُنشر على صفحات الإنترنيت لتربية الأولاد تربية دينيَّة.[68]

ومهما يكن من أمر فقد حاول راوينا الثعلبي تنسيق وتنظيم الأخبار التي سمعها[69]، وقرأها في مجلس واحد يطمح إلى جمع ووصل ما انقطع ونظم ما يمكن نظمه من المقاطع والأجزاء. لكنَّ المهمَّة كما يبدو كانت صعبة، والسرد كان ممتنعاً والبضاعة قليلة، وها نحن أولاء نراه في نهاية الأمر يُنهي مجلسه بدعاء ويختمه بعبارة: «والله أعلم».[70]

67 سير أعلام النبلاء، ج 17، بيروت، مؤسَّسة الرسالة، شعيب الأرنؤوط ومحمَّد العرقسوسي، 1996، ص 436، والظاهر أنَّ الثعلبي كان من محبّي هذا الخطاب الوعظي.

68 وهذا يمكن معاينته، وكما سبق، في شكله البسيط عبر مجموعة من المرئيات الدينيَّة القصيرة على الإنترنيت.

69 يصف ابن كثير "في البداية والنهاية"، ج 12، ص 40، الثعلبي بـ"كثير الحديث واسع السماع".

70 العرائس، ص 135

لائحة المصادر والمراجع:

- ابن بابويه، عيون أخبار الرضا، الجزء الأول، قُم، مكتبة طوس، 1983.

- ابن تيمية، مقدّمة في أصول التفسير، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1980.

- ابن منظور، لسان العرب على الباحث العربي: قاموس عربي عربي على الرابط:
http://www.baheth.info

- ابن كثير، قصص الأنبياء، تحقيق عبد الحي الفرماوي، القاهرة، دار الطباعة والنشر الإسلامي، 1997.

- ابن كثير، «البداية والنهاية»، ج 12، بيروت، مكتبة المعارف، 1991.

- تفاسير القرآن المذكورة في البحث نحيل إليها على الرابط التالي الذي يذكر عدداً كبيراً من التفاسير القرآنيَّة القديمة والحديثة والمختلفة المدارس: http://www.altafsir.com/indexArabic.asp

- الثعلبي، قصص الأنبياء المُسمى: عرائس المجالس، بيروت، المكتبة الثقافيَّة، بدون تاريخ.

- الدميري، حياة الحيوان الكبرى، 4 أجزاء، تحقيق إبراهيم صالح، دمشق، دار البشائر، 2005.

- الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 17، بيروت، مؤسَّسة الرسالة، شعيب الأرنؤوط ومحمد العرقسوسي، 1996.

- الأصفهاني، معجم ألفاظ القرآن، دمشق، دار القلم، 2009.

- الراوندي (قطب الدين)، قصص الأنبياء، مشهد، مجمع البحوث الإسلامية، 1409هـ.

- فينسينك، مقال أصحاب الرَّس، دائرة المعارف الإسلاميَّة، ج 1.

- القاضي (محمَّد)، الخبر في الأدب العربي، دراسة في السرديَّة العربيَّة، دار الغرب الإسلامي، 1998.

- المجلسي، بحار الأنوار الجامعة لدرر الأئمة الأخيار، تحقيق لجنة من العلماء، ج 14، بيروت، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 2008.

- المعاجم العربيَّة القديمة المذكورة في البحث، انظر موقع الباحث العربي الذي يقدّم خدمة البحث في أهمّ القواميس والمراجع اللغويَّة العربيَّة على الرابط:
http://www.baheth.info/index.jsp?page=/web/includes/start.jsp

- نعمة الله الجزائري، النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 2002.

- الكسائي، قصص الأنبياء، ليدن، 1923.

- يقطين (سعيد)، الكلام والخبر، مقدّمة في السرد العربي، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي ن 1997.

Amoretti, S., « On the Ashâb ar –Rass », in RSO, vol.43 (1968), pp.27-52
لم نستطع الحصول على هذا المقال.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017

All rights reserved © 2017